خطب عثمان بن عفان رضي الله عنه
نماذج من الأدب الإسلامي المتميز

كثيرا ما نجد أنفسنا ونحن بين يدي كتاب تراثي في حديقة كثيرة العطاء متنوعة الزهور، تعبق عطورها فتملأ أنفسنا بمشاعر شتى .. وأقرب مثال لذلك كتب السير والتراجم، فأنت تقرأ فيها الأحداث، وتتصور الشخصيات وكأنها تتحرك أمامك، وتستمتع ببيان ناصع يجري على ألسنتها، فتحظى بألوان شتى من الأدب والفكر والتاريخ، وقد تكتشف حقائق كانت غائبة عنك ..

ومن ذلك ما نجده في بعض كتب السير والتراجم التي تحدثت عن الصحابة الكرام رضوان الله عليهم أجمعين، وصورت جوانب من حياتهم، ونقلت إلينا عباراتهم، وجعلتنا أقدر على تصور شخصية كل منهم، وأقدر على فهمها والاستفادة مما أفادته وهي تتربى في مدرسة رسول الله ﷺ وتصقل ذاتها بتوجيهات كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام .

ومن تلك الجوانب التي نراها بوضوح الجانب البياني، خطب أولئك الصحابة الكرام، وأقوالهم المأثورة، والتي تعد فصلا قيما من فصول الأدب الإسلامي فهو تعبير بياني رفيع، أنبتته سليقة قوية صحيحة، ورفدته روافد البلاغة المثلى من التعبير القرآني المعجز، ومن البيان النبوي العالي فما من صحابي عاش مع رسول الله ﷺ حقبة من الزمن إلا وأخذ من آيات الله التي يحفظها الكثير، وأخذ من عباراته ﷺ الكثير، وصار ما أخذه ذخيرة يصدر عنها في تعبيره، فإذا وقف يخطب تدفقت جداول

بقلم : د . عبدالباسط بدر

العطاء الإيماني من تلك الذخيرة، وخالطت نسيج عباراته، وأضفت عليها جمال الفصاحة وسحر البلاغة .

وبين يدي نموذج لذلك يستحق أن نصفه بأنه نموذج متميز، متميز بشخصية صاحبه، وظروف حياته، وطبيعة المواقف التي ظهر فيها النموذج، هذا النموذج هو خطب الخليفة الراشدي الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه .

وعثمان بن عفان - كما نعرف - متميز في شخصيته، فهو الرجل الهادئ الحكيم، والتاجر البارع الذي كسب أموالا طائلة قبل الإسلام وبعده، والصحابي الذي أصهر إلى رسول الله ﷺ في ابنتيه رقية ثم أم كلثوم رضي الله عنهما، وواحد ممن لازموا رسول الله ﷺ إلى آخر حياته، فتوفي - كما قال عمر ابن الخطاب رضي الله عنه - وهو راض عنه . ولو رحت أعدد جوانب التميز في شخصيته لاستغرق ذلك مني الوقت الطويل.

وعندما تولى عثمان بن عفان رضي الله عنه الخلافة أصبح بحكم منصبه يرتقي المنبر ويخاطب الرعية في أمور شتى، شأنه في ذلك شأن أبي بكر وعمر من قبله رضي الله عنهم جميعا . وكان مما اهتم به في خطاباته نصح الرعية وتذكيرهم بمواعظ رقيقة بليغة تلامس شغاف القلوب، تذكرهم بما لا ينبغي أن يغفلوا عنه، والذكرى تنفع المؤمنين، تذكرهم بحقيقة الموت والحياة، لتكون هذه الحقيقة طريقا إلى تحقيق التقوى وتعميقها، فالموت قادم لا يتخلف، وشواهده نراها كل يوم ونعرفها فيمن سبقونا من أهلينا وأقاربنا والجنائز التي تمر بنا، وهي جديرة بأن تجعلنا نستعد له . يقول عثمان بن عفان رضي الله عنه عن ذلك في خطبته : « **ابن آدم! اعلم أن ملك الموت الذي وكل بك لم يخلفك، ويتخطى إلى غيرك منذ أنت في الدنيا، وكأنه قد تخطى إليك غيرك وقصدك، فخذ حذرك واستعد له، ولا تغفل فإنه لا يغفل عنك . واعلم يا ابن آدم إن غفلت عن نفسك ولم تستعد لها لم يستعد لها غيرك، ولا بد من لقاء الله، فخذ لنفسك ولا تكلها إلى غيرك** » .

إن التميز الذي رأيناه في شخصية عثمان بن عفان رضي الله عنه في توجهه التجاري واستغراقه حتى البراعة والثراء يجعلنا ننظر بدهشة وإعجاب إلى هذا التوازن الدقيق في تعامله رضي الله عنه مع قضية الحياة والموت، فطالما رأينا النماذج الناجحة من التجار ورجال الأعمال تشغلهم تجاراتهم وأعمالهم عن أن يصلوا إلى هذه الرؤية الناصعة، غير أن عثمان رضي الله عنه الذي امتلأت نفسه بالإيمان العميق أمسك بذلك التوازن، فهو يكسب الأموال الضخمة من جهة، وينفق في سبيل الله الأموال الضخمة ويجهز جيش العسرة، ويتصدق بقافلة فيها الآلاف المؤلفة .

ويتجلى هذا السلوك المتوازن في خطابته، حيث يقول موجها الرعية ومبينا لهم ما ينبغي أن يفعلوه فيما آتاهم الله من الرزق، يقول : « **إن الله عز وجل إنما أعطاكم الدنيا لتطلبوا بها الآخرة، ولم يعطكموها لتركنوا إليها . إن الدنيا تفنى والآخرة تبقى، فلا تبطرنكم الفانية، ولا تشغلنكم عن الباقية، فآثروا ما يبقى على ما يفنى، فإن الدنيا منقطعة، وإن المعاد إلى الله** » .

وتصل هذه الرؤية الإيمانية العميقة في خطابات عثمان بن عفان رضي الله عنه وفي توجيهاته إلى البوابة التي يفوز فيها كل من يبلغها ويدخلها .. بوابة التقوى .. فهي الجسر إلى رضوان الله وإلى جناته، وهي التي يريد عثمان رضي الله عنه من كل مسلم أن يبلغها بسعيه في الدنيا، وبمكاسبه، وبتفكره وبتذكره يقول : « **اتقوا الله فإن تقوى الله غنم، وإن أكيس الناس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، واكتسب من نور الله نورا لظلمة القبر ... اتقوا الله عز وجل فإن تقواه جنة من بأسه، ووسيلة عنده ...** » .

وبعد : فإن هذه التوجيهات وأمثالها عندما تصدر من عثمان بن عفان رضي الله عنه، تحمل بين أثنائها فضلا عن آثار الإيمان العميق، وظلال مدرسة رسول الله ﷺ في التربية والتوجيه، تحمل آثار التجربة العملية الواقعية، تجربة رجل عمل في الدنيا ونجح فيها وكسب .. ولكن نجاحه وتميزه لم يحجب عن بصيرته إدراك الآخرة والعمل لها، والتزام السبيل المؤدي إليها سبيل التقوى .. وعندما تنسكب هذه التجربة بكل روافدها العظيمة وبتفاعلاتها الكثيرة في خطبة تتناقلها كتب السير والتراجم تصبح نصا من نصوص الأدب الإسلامي المعطاء .. نصا نجد فيه التجربة والعبرة والبيان الناصع . ■